الشعر والقومية الإسلامية

استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يؤسس دولة بمصر بعد أن قطع الخطبة عن الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ. واستطاع أن يضم إلى دولته قسما كبيرا من بلاد الشرق الأوسط عملا بالسياسة التى أخذها عن نور الدين زنكى، وهى السياسة التى ترمى إلى توحيد هذه البقعة من البلاد الإسلامية حتى يستطيع أن يواجه الإمارات الصليبية التى احتلت قواتها معظم ساحل الشام وبعض المدن الهامة وخاصة بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى، رأى نور الدين زنكى وصلاح الدين من بعده أن المسلمين كانوا متفرقين بين إمارات صغيرة ضعيفة فيكيد بعضها للبعض الآخر، ويستعين أمير من أمرائها بالصليبيين على أمير آخر، مما أضعف حال المسلمين ضعفا شديدا الأمر الذى ترتب عليه أن أصبح للصليبيين مكانة فى البلاد ليس من السهل مقاومتها، وازداد طمع الصليبيين فى البلاد الإسلامية حتى إنهم طمعوا فى محو الإسلام والمسلمين من العالم.

أدرك صلاح الدين ببعد نظره وكياسته أن خير وسيلة لعلاج حالة المسلمين أن يوحد بينهم ويجمع كلمتهم ويلم شعثهم حتى يستطيع أن يواجه الصليبيين بقوى موحدة كاملة، وكان صلاح الدين يذكر الآية القرآنية الكريمة «والأعراب أشد كفرا ونفاقا» وكان يعلم أن عددا كبيرا من الأعراب المنافقين يساعدون الأعداء فى سبيل دراهم معدودة، وباعوا أوطانهم وإخوانهم فى الإسلام لقاء منفعة عاجلة، فأراد أن يأمن شر هؤلاء الأعراب الذين دمغهم الله تعالى بالكفر والنفاق، لهذا كله بدأ صلاح الدين حروبه مع الإمارات الإسلامية ومع هؤلاء الأعراب المنافقين، حتى إذا أتم له إخضاعهم لسلطانه وولى عليهم بعض أفراد أسرته، قصد بجموعهم المتحدة إلى الإمارات الصليبية واستطاع أن ينتزع بعضها إلى أن استعاد بيت المقدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ، ومما لاشك فيه أن هذه الحروب التى خاضها صلاح الدين ولا سيما حروبه مع الصليبيين، قد ألهبت حماسة المسلمين فى جميع الأقطار، وأيقظت شعورهم بعد رقدته عدة قرون، وأوجدت بينهم ما نستطيع أن نطلق عليه الاصطلاح الحديث «الشعور بالقومية الإسلامية» فبالرغم من أن القومية والشعور بها أثر من آثار الثورة الفرنسية فى العصر الحديث فإن المسلمين فى القرون الوسطى شعروا بهذا الشعور ونادوا به إبان حروب صلاح الدين، وكان الأدب

– شعرا ونثرا– هو اللسان المعبر عن هذا الشعور، وإذا تصفحنا كتب التاريخ أو دواوين الشعراء يروعنا أن نجد هذا العدد الكبير من القصائد التى قيلت فى هذا الفن الذى أعده جديدا على موضوعات الشعر العربى، وهو فن الشعور بالقومية الإسلامية، واشترك فى هذا الفن عدد كبير من الشعراء فى مختلف البلاد الإسلامية حتى هؤلاء الذين لم يتصلوا بصلاح الدين أو بأحد أفراد أسرته إنما دفعهم إلى ذلك الشعور بالقومية الإسلامية أو الوحدة الإسلامية، ومحيت فكرة الشعوبية التى تفضل العرب على الأعاجم، وحل محلها فكرة «نصرة الإسلام» وعزة الإسلام، وأن المسلمين أخوة لا فرق بين عربى وأعجمى، وأن الله تعالى ينصر كل من يعمل على انتصار المسلمين عند الكافرين، هذه هى المعانى السامية الجليلة التى أكثر منها الشعراء وهم ينشدون فى مدح صلاح الدين، فهاهو ابن سناء الملك يقول فى إحدى قصائده يهنئه بفتح حلب.

بدولة الترك عزت ملة العرب ... وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وصارت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة ... بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب
مظفر النصر منعوت بهمته ... إلى العزايم مدلول على الغلب
والدهر بالقدر المحتوم يخدمه ... والأرض بالخلق والأفلاك بالشهب
ويجتلى الخلق من راياته أبدا ... مبيضة النصر من مصفرة العذب
إن العواصم كانت أى عاصمة ... معصومة بتعاليها عن الرتب
ما دار قط عليها دور دائرة ... كلا ولا واصلتها نوبة النوب
لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته ... ولو رماها بقوس الأفق لم يصب
ولو أتى أسد الأبراج منتصرا ... خارت قوائمه عنها ولم يثب
جلية النجم فى أعلى منازله ... وطالما غاب عنها وهى لم تغب
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية ... كواكب الدلو فى بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب فى صعد ... إلا العواصم تبغى السحب فى صبب
حتى أتى من منال النجم مطلبه ... يا طالب النجم قد أوغلت فى الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعته ... لصير الرأس منه موضع الذنب
أتى إليها يقود البحر ملتطما ... والبيض كالموج والبيضات كالحبب

تبدو الفوارس منه فى سوابقها ... بين النقيضين من ماء ومن لهب
مستلئمين ولولا أنهم حفظوا ... عوائد الحرب لاستغنوا عن البلب
جمالهم من مغازيهم إذا قفلوا ... حمالة السبى لا حمالة الحطب
فطاف منها بركن لا يقبله ... إلا أسنة أطراف القنا السلب
وحل من حولها الأقصى على فلك ... ودار من برجها الأعلى على قطب
ومانعته كمعشوق تمنعه ... أحلى من الشهد أو أحلى من الضرب
فمر عنها بلا غيظ ولا حنق ... وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوى البلاد وأهليها كتائبه ... طيا كما طوت الكتاب للكتب
وافى الفرات فألقى فيه ذا لجب ... يظل يهزأ من تياره اللجب
رمت به الجرد فى التيار أنفسها ... فعومها فيه كالتقريب والخبب
لم ترض بالسفن أن تغدو حواملها ... فعزها ليس يرضى ذلة الخشب
وكان علمها قطع الفرات به ... تعلم العوم فى بحر الدم السرب
وجاوزته وألقى من فواقعه ... درا يرضع فوق العرف واللبب
إلى بلاد أجابت قبل أن دعيت ... للخاطبين ولولا الخوف لم تجب
لو لم تجب يوسفا من قبل دعوته ... لعاد عامرها كالجوسق الخرب
خافت وخاف وفر المالكون بها ... فالمدن فى رهب والقوم فى هرب
ثم استجابت فلا حصن بممتنع ... منها عليه ولا ملك بمحتجب
وأصبحوا منه فى هم وصحبهم ... وهم سكارى بكأس اللهو والطرب
تفرغوا لنعيم العيش واشتغلوا ... عن الثغور بلثم الثغر والشنب
أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها ... بمالك فطن أو سائس درب
ممالك لم يدبرها مدبرها ... إلا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت ... من الفساد كما صحت من الوصب
واستعمل الجد فيها غير مكترث ... بالجد حتى كأن الجد كاللعب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة ... فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب
يعطى الذى أخذت منه ممالكه ... وقد يمن على المسلوب بالسلب
ويمنح المدن فى الجدوى لسائله ... كما ترفع فى الجدوى عن الذهب
ومن رأت صده عن ربعها حلب ... ووصله لبلاد حلوة الحلب

غارت عليه ومدت كف مفتقر ... منها إليه وأبدت وجه مكتئب
واستعطفته فوافتها عطفه ... وأكتب الصلح إذ نادته عن كثب
وحل منها بأفق غير منخفض ... للصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه ... ملك الملوك ومولاها بلا كذب
ومعجز كم أتانا منه مشبهة ... فصار لا عجبا من فضله العجب
تهن بالفتح يا أولى الأنام به ... فالفتح إرثك عن أبائك النجب
وافخر ففتحك ذا فخر لمفتخر ... ذخر لمدخر كسب لمكتسب
بك العواصم طابت بعدما خبثت ... بمالكيها ولولا أنت لم تطب
فليت كل صباح ذر شاقه ... فداء ليل فتى الفتيان فى حلب
إنى أحب بلاد أنت ساكنها ... وباكنيها وليسوا من ذوى نسبى
إلا لأنك قد أصبحت مالكها ... دون الأنام وهل حب بلا سبب
فجرد كفك ذخرى فى يدى ويدى ... وحب بيتك إرثى عن أبى فأبى
ألهى مديحك شعرى عن تغزله ... فجاء مقتضبا فى إثر مقتضب
فلم أقل فيه لا أن الصبابة لى ... يوم الرحيل ولا أن المليحة بى[1]

فالشاعر بدأ قصيدته بأن الأتراك الأعاجم الذين منهم صلاح الدين انتصروا لملة العرب أى للإسلام وأن الإسلام انتصر بفضل صلاح الدين، وبفضل هذا الانتصار أصبحت وحدة مصر مع الشام وحدة حقيقية إذ صارت حلب جزءا من مصر، وأصبحت مصر جزءا من حلب وهذان البيتان فى مطلع القصيدة يدلان على ما كان يرمى إليه صلاح الدين من توحيد البلاد الإسلامية حتى يستطيع أن يلاقى بالبلاد المتحدة قوى الأجانب المستعمرين الذين طمعوا فى البلاد الإسلامية لتفريق المسلمين، ثم يمضى الشاعر فى وصف جيش صلاح الدين وقوة هذا الجيش وتأييد الله له.

أما الشاعر ابن النحاس المصرى يحيى بن علم الملك فهو يمدح صلاح الدين بصورة أخرى فهو يقول:

يا مالك المصر والشامين واليمن ... ويا معيد حياة الفرض والسنن
وناصر الحق إذ عزت خواذله ... ومنقذ الدين والدنيا من الفتن

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٩ وما بعدها نشر الدكتور عبد الحق طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد بالهند.

يا يوسف الحسن والإحسان لا برحت ... نجوم سعدك والتوفيق فى قرن
جاد الملوك بمال بعد منهم ... وجدت المال والأرزاق والمنن
لقد بعثت لإصلاح الوجود فما ... أصبحت إلا محل الروح فى البدن
وما يداجيك إلا كافر أشر ... وينثنى عنك إلا عابد الوثن
بباب عدلك مظلوم القوى زمن ... يشكو إليك الأذى من عبدك الزمن
وإن تلافته من بعد التلاف يد ... بسطتها لتقى الدين بالمنن
فلا عناء له إذ كان صاحبه ... إليك مفتقرا عن جودك الهتن
مجرب فى الوفا مملوك دولتكم ... وحسن سيرته فى السر والعلن
هنئت بالفطر والفتح المبين وما ... أتى من اليمن والبشرى من اليمن
مقدم الملك المولى المعظم قد ... سرى السرور إلى الأفهام والفطن
علمت قومك وتفريق الممالك فى ... العبيد حتى غدت من جملة المؤن
فقد أتاك ومن أدنى سماحته ... تخويل خادمه ملك ابن ذى يزن
لازلت فى ذروة العلياء منفردا ... بالنصر ما غرد العمرى فى فتن[1]

فابن النحاس المصرى يمدحه بأنه ملك أكثر البلاد العربية وأنه أحيا بها الدين الإسلامى الصحيح بفرائضه وسننه وأنه أنقذ الدين والدنيا من الفتن. ولكن الشاعر بالغ فى مدحه فذهب إلى أن صلاح الدين «بُعث لإصلاح الوجود» وأنه حل فى البلاد «محل الروح بالبدن» فكأنه جعل من صلاح الدين نبيا بعث لإصلاح الوجود، ولا أكاد أعرف شاعرا من الشعراء مدح ملكا من الملوك بمثل هذه المبالغة التى ذهب إليها شاعر مسلم فى مدح ملك عمل لنصرة الإسلام؛ ومع أن الشاعر جعل صلاح الدين نبيا بُعث، فإنى لم أعرف أحدا من رجال عصره أخذ عليه هذه المبالغة. بل يذهب الشاعر إلى أن جاحد بعثته كافر والمزور عنه عابد للوثن وهى كلها من لون المبالغة التى جرى عليها شعراء أواخر العصر الفاطمى ونهج نهجهم شعراء المدح فى الدولة الأيوبية، ولا سيما الشعراء الذين ذهب المؤرخون إلى تسميتهم بمدرسة القاضى الفاضل، فأخص ما تختص به هذه المدرسة هذه المبالغة الشديدة التى قد تذهب إلى حد المستحيل - على نحو ما سنذكره فى حديثنا عن القاضى الفاضل ومدرسته - وكانت هذه المبالغة محببة، وشاد بها النقاد ولاسيما الذين جاءوا بعد هذا العصر، فابن النحاس المصرى ذهب هذا المذهب فى مدح صلاح الدين.

(١) العماد الأصفهانى خريدة القصر ج ٢ ص ١٢٢.

ومن قصيدة الأسعد بن مماتى فى مدح صلاح الدين يقول:

يا كريم الخيم فى الخيم ... أهيف كالرئم ذو شمم
عجبى للشمس إذ طلعت ... منه فى داج من الظلم
كيف لا تصمى لواحظه ... ورماة الطرف فى العجم
لا تصد قلب المحب لكم ... ما يحصل الصيد فى الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا ... مذ براه الله للأمم
أضحت الكفار فى نقم ... وغدا الإسلام فى نعم[1]

فالشاعر يشير إلى ما يعانيه الكفار من نقمة صلاح الدين، وما يرتع فيه المسلمون من نعيم.

وقال الشاعر أبو الفضل جعفر بن المفضل المعروف بشلعلع فى مدح صلاح الدين أيضا:

عداك إلى أعدائك الذل والقهر ... ولازال مخصوصا بك العز والنصر
ودمت صلاح الدين للدين مصلحا ... يطيعك فى تصريف أحوالك الدهر
وأبقاك للإسلام من شاء كونه ... ببقياك فى أمر يجنبه الذعر
مفيضا على الملك الأغر ملابسا ... من النصر حاكت نسجه القضب الخضر[2]

فالشاعر يدعو لصلاح الدين بالدوام لصالح الدين الإسلامى، فالفكرة هى فكرة علو شأن الإسلام والمسلمين قبل كل شىء ومثل هذا يقول الشاعر أبو الحسن بن الذروى:

شرحت لمنن الدين بالسمر والظبا ... من المجد معنى كان من قبل يغمض
وما كاد جيش الروم يبرم كيده ... إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت ... ثغورا بأمواه الحديد تمضمض
أسرت ملوك الكفر حتى تركته ... وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض[3]

وهكذا يستمر الشعراء فى الإشادة بما أداه صلاح الدين إلى الدين الإسلامى، ثم انظر إلى ما قاله الشعراء فى فتح القدس إذ أظهر الشعراء فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فرحهم

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج١ ص ٢٧٠.
(٢) العماد: الخريدة ج ٢ ص ١٢٥.
(٣) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ٨٢.

بانتصار المسلمين على الصليبيين، فشعورهم بهذا الفرح دليل على هذه الوحدة الإسلامية التى كان يعمل لها صلاح الدين فمن ذلك قول نجم الدين يوسف بن المجاور:

الوقت أضيق من سماع قصيدة ... مرسومة لصفات أغيد أهيف
الجد فى هذا الزمان مبين ... والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدى والهادى إلى ... سبل الجهاد أبى المظفر يوسف
شدَّت قوى أركان ملة أحمد ... وتجملت بجهاده فى الموقف
مولى غدا للدين أكرم والد ... حدب على أبنائه مترفرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم ... وأقام فى الإنجيل حد المصحف
ملك له فى الحرب بحر تفقه ... وله غداة السلم زهد تصوف
وعليه أنزل فى الجهاد مفصَّلٌ ... فلذاك يقرأه بسبعة أحرف
أحييت دين محمد وأقمته ... وسترته من بعد طول تكشف
جاءت جنود الله تطلب ثأرها ... وصدورها بل عن قليل تشتفى
فانهض بها وتقاض حقك موقنا ... أن الإله بما تؤمله حفى
هم فتية الأتراك كل مجفجف ... يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة ... لا ينظرون إليه من طرف خفى
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا ... لله در المصطفَى والمصطفِى[1]

فالشاعر فى هذه المقطوعة يكرر نفس الفكرة التى غمرت المسلمين فى هذا العصر وهى فكرة نصر الإسلام وإعلاء شأنه بعد أن ضعف بسبب تفرق المسلمين، وتذهب به المبالغة إلى أنه أنزل عليه القرآن فى الجهاد وأن الممدوح يقرأ هذا الكتاب المنزل بسبعة أحرف ثم أشاد إلى جنود صلاح الدين من الأتراك الذين اختارهم لهذا الجهاد فى سبيل الله.

ثم اقرأ قصيدة الشريف الجوانى محمد بن أسعد النسابة المصرى:

أترى مناما ما بعينى أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذى ... بزواله وزوالها يتطير
وملوكهم فى القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٤.

فتح الشآم وطهر القدس الذى ... هو فى القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت فى نصر النبوة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به ... يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه ... فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو ... ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فإن خطبت له ... فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلى بسنابك ... تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أن تطأ الثرى ... فيصدها عنه طلى وسنور
تمشى على جثث العدا عرجا ولا ... عرج بها لكنها تتعثر[1]

فالشاعر هنا يرى أن حقيقة فتح القدس وانتزاعه من أيدى الصليبيين حلم من الأحلام وأن كنيسة القيامة سيزال عنها الرجس وأن مليك الصليبيين قد أخذ أسيرا وقيد بالأصفاد بعد أن كان الشعور السائد بين المسلمين أن ملوك الصليبيين على قسط كبير من الشجاعة فلم يقع أحدهم فى الأسر من قبل، وأن هذا النصر الذى أحرزه المسلمون هو «نصر الله والفتح» الذى وعد به الرسول صلوات الله عليه، ومن الطريف أن يعرض الشاعر لهذه القصة الشعبية التى تقول: إن القدس هو المكان الذى سيحشر فيه الناس يوم القيامة. ثم شاء الشاعر أن يصف صلاح الدين الذى تمت على يديه هذه الفتوحات فهو «يوسف الصديق» وهو «عمر بن الخطاب» وهو «عثمان بن عفان» وهو «على بن أبى طالب» أى أنه جمع صفات الخلفاء الراشدين الذين على يديهم امتدت الفتوحات الإسلامية وحافظوا على الأمانة التى حملوها فى العمل بالكتاب والسنة، ثم أخذ فى وصف طعناته فى الأعداء ووصف جيشه، ولكن الصورة التى تعجبنى حقا هى أنه جعل «الرمح ينظم والمهند ينثر» فهذه الاستعارة أن الرمح ينظم القتلى كما ينظم الشاعر قصيدته، والمهند ينثر الدماء كما ينثر الكاتب كتابته تدل على خيال خالق يؤلف بين الصور المختلفة. ويظهر فنه فى مثل هذا البيت، ويخيل إلى أن هذه الصورة جديدة لم يسبق إليها.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٥.

واقرأ للشاعر فخر الكتاب أبى على الحسن بن على الجوينى قصيدته التى أرسلها من مصر بعد فتح القدس يقول:

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما يحكيه فى زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما ... له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم ... خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس ... فحام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم من ملك من بعده نظر الإسـ ... ـلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والإسـ ... ـلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذى الفتوح وما ... سمت لهم همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقـ ... ـال الناس داود هذا أم سليمان
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما ... فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وإخوته ... بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عما سواه فالفرنجة لم ... يبدهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد ... تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد ... غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما ... ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يبقيك للإسلام تحرسه ... من أن يضام ويلفى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة ... فالكفر فى سنة والنصر يقظان
يا جامعا كلمة الإيمان، قامع من ... معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوان[1]

فانظر إلى ثورة هذا الشاعر النفسية التى تظهر فرحة لهذا النصر، فهو يهجم على موضوعه منذ أول بيت بأن جند السماء أعوان لهذا الملك الذى تم على يديه الفتح، وأنه

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٤.

لا يشك مطلقا فى ذلك لأن هذا الفتح أكبر برهان يقدمه، وفى البيت الثانى يريد أن يقول إن هذا الفتح معجزة، وأنه فتح أشبه بفتوح الأنبياء، وبعد أن تحدث عن ما آل إليه ملوك الفرنج وأن هؤلاء الملوك الصِّيد أصبحوا صَيْدًا، ثم أخذ ينعى على ملوك المسلمين السابقين الذين ضعفوا أمام الصليبيين ولم يلبوا دعوة المستصرخين، بل خافوا، وصمت آذانهم، وكل ملك منهم تهالك على لذاته. أما الآن فقد انقلب الأمر، ولبى صلاح الدين صرخة المكلومين، حتى غالى هذا الشاعر فى حديثه عن هذا الفتح، فذهب إلى أنه لو كان فى عهد النبى لأنزلت فيه آيات وقرآن، والظاهر فى هذه المقطوعة هذه العاطفة الدينية التى سيطرت على كل مسلم فى تلك السنوات فى جميع الأقطار الإسلامية وهو ما عبرنا عنه بالشعور بالقومية الإسلامية.

وهكذا كانت حروب صلاح الدين مثارا لشعر الشعراء الذين لم يمدحوا صلاح الدين طلبا فى النوال فحسب، إنما مدحوه لهذه الناحية الدينية التى طغت على كل المسلمين وكانت تعبيرا صادقا عن شعورهم بضرورة الوحدة الإسلامية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين يحب الشعر ويحب العلماء، وجمع حوله عددا كبيرا من الشعراء والعلماء كانوا يلازمونه فى أكثر الأحيان، ولا ننسى أن صلاح الدين أنشأ عدة مدارس لإعادة مذهب أهل الجماعة والسنة فى مصر، فقد عمر مدرسة بجوار الإمام الشافعى وأخرى بجوار مسجد الحسين بالقاهرة، وبنى للشافعية المدرسة التى عرفت بابن زين التجار. كما جعل دار عباس الوزير الفاطمى مدرسة للحنفية، ودار سعيد السعداء خانقاه للصوفية، وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستان وأوقف على ذلك كله أوقافا جيدة[1].

وعلى هذا النحو كان صلاح الدين ذا أثر على الناحية العقلية بجانب أثره فى الناحية الأدبية، وقد وجد الشعراء فى مآثر صلاح الدين مجالا واسعا للحديث عنه وعن مآثره. جاء صلاح الدين مصر ودولة الشعر مزدهرة، والشعراء المصريون وإخوانهم الشاميون على درجة من الرقى الأدبى، مما تحدثنا عن شىء منه فى كتاب أدب مصر الفاطمية، واستمر تيار هذا الشعر القوى فى عهد صلاح الدين، فقد شاهد هذا العصر (عصر صلاح الدين) عددا من كبار الشعراء أمثال: القاضى الفاضل، وابن سناء الملك، وابن عرام، وابن رفاعة، وابن مماتى، وابن الذروى، وابن المنجم وغيرهم. هؤلاء كونوا البلاط الأدبى الفنى الذى

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤.

نجده فى عهد صلاح الدين، وإذن فإن نهضة الشعر التى رأيناها فى أواخر العصر الفاطمى استمرت ولم تنقرض بانقراض الدولة الفاطمية، بل لا أغالى إن قلت إنها ازدادت قوة بفضل شخصية صلاح الدين وبفضل هذه النواحى المتعددة التى عرف بها صلاح الدين، ولعل من الدوافع التى قوت تيار الشعر فى ذلك العصر وجود شخصية القاضى الفاضل على رأس الوزارة المصرية، والقاضى الفاضل من أبرز الشخصيات فى توجيه الشعر إلى هذا اللون الفنى، كما كان له أثره فى جمع الشعراء حول صلاح الدين، فهو الذى قدم العماد الأصفهانى واستكتبه، كما وفد ابن الساعاتى، وعرقلة، والعلم الشاتانى وأبو على الجوينى وغيرهم على مصر، وانضموا إلى زمرة شعرائها، فأصبحت القاهرة حاضرة الشعر العربى فى ذلك العصر، وملجأ للشعراء من جميع الأقطار الإسلامية، وكان الموضوع الرئيسى الذى اشترك فيه هؤلاء الشعراء جميعا هو موضوع الوحدة الإسلامية والشعور بعزة الإسلام ورفع شأنه والدفاع عنه وإذن فقد ظهر فى العصور الوسطى لون من ألوان الفكرة القومية بين المسلمين جميعا مما كان لها خطرها فى التاريخ الإسلامى، فبفضل هذه الوحدة والشعور القوى بها انهزم الصليبيون وتركوا إماراتهم فى الشام، كما انهزم التتار بعد ذلك.

ولكن بكل أسف لم يستطع خلفاء صلاح الدين أن يحافظوا على هذه السياسة التى وضعها مؤسس دولتهم، بل تفرقوا وتشاحنوا، وعادوا إلى الانقسام مثل ما كان الأمر عليه من قبل، فضعفوا وهانوا، واستطاع الصليبيون أن ينشطوا مرة أخرى بعد أن رأوا الضعف يدب بين ملوك المسلمين بسبب انقسامهم، وتفرق كلمتهم، بحيث اضطر الملك المعظم عيسى صاحب دمشق إلى تخريب بيت المقدس سنة ٦١٦ هجرية، وهنا أترك أبا المحاسن يحدثنا عن هذه المأساة «ووقع فى البلد ضجة عظيمة، وخرج النساء المخدرات، والبنات والشيوخ، وغيرهم إلى الصخرة والأقصى، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، وفعلوا أشياء من هذه الفعال، ثم خرجوا هاربين، وتركوا أموالهم، وأهاليهم، وما شكوا أن الفرنج تصبحهم، وامتلأت بهم الطرقات، فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن، ويربطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونهبت الأموال التى كانت لهم بالقدس، وبلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم، والرطل النحاس نصف درهم، وذم الناس المعظم فقال بعض أهل العلم فى ذلك.

فـى رجـب حـل الـحـمـيـا ... وأخـرب الـقـدس فـى الـمـحـرم

وقال القاضى مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفى قاضى الطور فى خراب القدس:

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صبابة ... على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفى رسومه ... وشمر عن كفى لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم[1]

فالشاعر مجد الدين الحنفى يبكى على تلك الأيام التى انتصر فيها الإسلام والمسلمون، ويظهر ألمه الدفين لما حل بالقدس، وأنه تمنى لو فدى القدس بنفسه، وليس هذا شعوره فحسب، بل هو شعور كل مسلم. والواقع أن شعور المسلمين جميعا وهو شعور الوحدة الإسلامية بخلاف الحكام، فقد كانوا مختلفين؛ هذا الشعور نجده واضحا فى القصيدة السابقة، ثم نراه واضحا فى هذا الشعور الذى ساد العالم الإسلامى عندما تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثانى، وكيف أن ابن أخيه الملك الناصر صاحب دمشق جمع مجلسا بجامع المدينة، وخطب فى هذا المجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى، ما جعل الناس يضجون بالبكاء والعويل، وفى هذه الحادثة أنشد الشاعر ابن المجاور قصيدته التى منها:

أعينى لا ترقى من العبرات ... صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها ... توقد ما فى القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما ... خبت بادّكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشحو منك لعله ... يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره ... على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحى والهدى ... على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى ... أنافت بما فى الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التى اتجهت لها ... صلاة البريا فى اختلاف جهات
ومازال فيه للنبيين معبد ... يوالون فى أرجائه السجدات

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٤.

عفى المسجد الأقصى المبارك حوله الـ ... رفيع العماد العالى الشرفات
لتبكى على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والقرحات
لتبكى عليها مكة فهى أختها ... وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبكى على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه فى أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصورا بهدمها ... ويا طالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ... وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ... وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ... لهم عظم ما والوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم ... بمسعاته عدوا من السروات
وإن افتتاح القدس زهرة ملكهم ... وهل ثمر إلا من الزهرات

لعل هذه القصيدة تغنى عن كل تعليق أو حديث عن ما ساد العالم الإسلامى من حزن دفين، وما سكبوه من دموع، وكيف عاير الشاعر الأيوبيين بأن فتح القدس كانت سبب ثروتهم ومركزهم فى البلاد الإسلامية، أما وقد سلم الملك الكامل القدس مرة أخرى إلى الصليبيين فكل ما فعله صلاح الدين وكل ما قامت به أسرة بنى أيوب قد ضاع هباء.

ثم نرى هذا الشعور أيضا عندما حاول الملك لويس التاسع فتح مصر وما قاله الشاعر ابن المطروح فى قصيدته المشهورة التى فيها يقول:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قؤول فصيحْ
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهم ... إلا قتيلا أو أسيرا أو جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بابكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

فبعد انهزام الملك لويس التاسع فى مصر شاء أن ينتقم من المسلمين بفتح تونس فقال أحد شعرائها:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرا وطواشيك منكر ونكير[1]

فتعبير الشاعر أن تونس أخت مصر هو تعبير دقيق للوحدة الإسلامية التى ربطت الشعوب بغض النظر عن تصرف الأمراء والحكام، فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن يفرق الملوك أو الرؤساء الشعوب الإسلامية أو العربية، فاتحاد هذه الشعوب حقيقة واقعة منذ عهد بعيد بحيث خالطت دماءهم وحلت مع الروح فى أجسامهم. فأى محاولة لتمزيق هذه الوحدة لون من ألوان العبث الذى يدل على قصر نظر المحاولين، كما يدل على الجهل بالحقيقة التاريخية، وعدم فهم نفسية الشعوب العربية والإسلامية.

(١) المقريزى: السلوك ج ١ قسم ثان ص ٣٦٥.